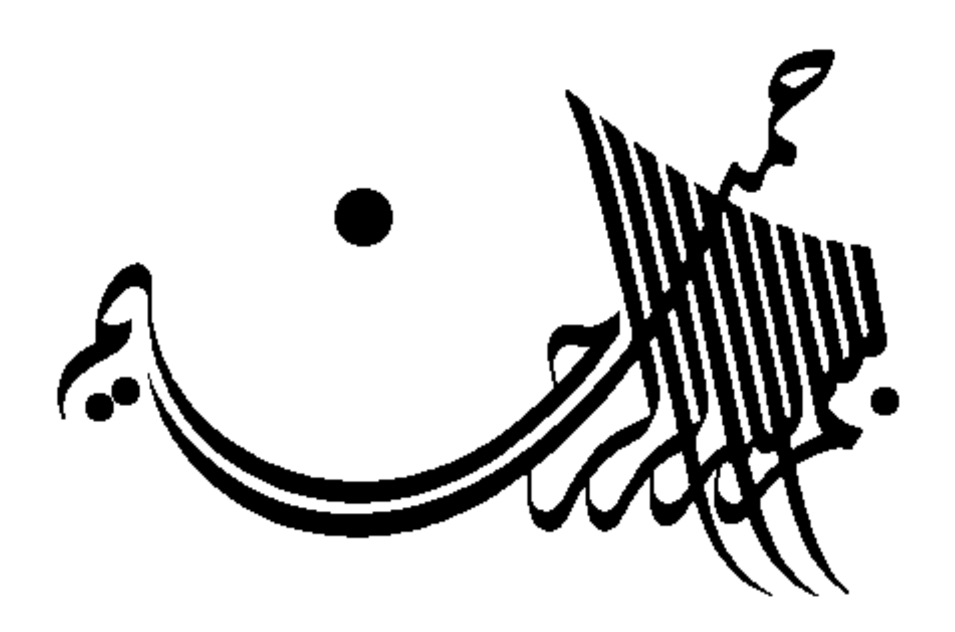
دلائل القرآن

على أصول الإيمان

تأليف/ أبي عبدالله -رحمه الله-



الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، وبعد ...

الإسلام هو الدّين الحقّ الذي لا يقبل الله دينًا سواه، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ ﴾ آل عمران: ١٩ وقال: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٥ والإسلام لا يكون الإنسان من أهله بمجرّد الانتساب إليه بل لا يكون من أهله حتّى يأتي بحقيقته ومعناه، قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٢٣ فلا يكون الإنسان مسلمًا بمجرّد الأمنية والإدعاء بأنه مسلم بل لا بد من اعتقاد معنى الإسلام والعمل بحقيقته وقد بيّن الله لنا حقيقة الإسلام بيانًا واضحًا لا يعمى إلا على من طمس الله بصيرته، وسوف نذكر شيئًا من بيان القرآن لأصل الإسلام الذي لا يكون الإنسان مسلمًا إلا بعد معرفته والعمل به:-

قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ آل عمران: ٢٤ ففي هذه الآية دعوة أهل الكتاب الذين يزعمون أنّهم على الدّين الحق إلى معنى الإسلام وحقيقته، وتتلخّص حقيقة الإسلام في كلمة واحدة هي كلمة عَدْلٍ وَحَدٍّ فاصل بين المسلمين والكفار، من أتى بها فهو مسلم ومن تولّى عنها ولم يأتِ بها فليس بمسلم ولن ينفعه ادعاؤه أنّه على الدين الحق، وقد فسر الله هذه الكلمة بقوله: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

فلهذه الكلمة ركنان:-

- الرّكن الأول: إفراد الله بالعبادة فلا يُشرك معه غيره في التّعبّد.
- الرّكن الثّاني: الانقياد لطاعة الله وإفراده بها، فلا نتّخذ مع الله مُطاعين نطيعهم في تبديل حكم الله فنكون بذلك قد أعطيناهم صفةً من صفات الرّبوبية

وهـي التّشـريـع، قـال تـعالـى: ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ الشورى: ٢١

ولا نتولى عن الانقياد لطاعة الله فنكون بذلك كافرين، قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢ ثمّ أمرنا الله تعالى أنّهم إذا تولّوا عن هذه الكلمة فلم ينقادوا لها أمرنا أن نفاصلهم ونبرأ منهم ونشهد بأننا المسلمون ونشهد بأنّهم غير مسلمين.

ولهذه الآية نظائر في القرآن منها قول الله تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ ءَاذَنتُكُمۡ عَلَىٰ سَوَآءٖۖ وَإِنۡ أَدۡرِيٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٞ مَّا تُوعَدُونَ ﴾ الأنبياء: ١٠٨-١٠٩ وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾ آل عمران: ١٩-٢٠ وقول الله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ تِلۡكَ أَمَانِيُّهُمۡۗ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰۚ مَنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجۡرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾ البقرة: ١١١-١١٢

وقول الله تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ فَإِنۡ ءَامَنُواْ بِمِثۡلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا هُمۡ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٣٦-١٣٧

وقول الله تعالى: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ

مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ آل عمران: ٨٤-٨٥ وقال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ النساء: ١٢٥

وقال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر: ٢٩ وقال تعالى في سورة الحج: ﴿ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُوا۟ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴾ الحج: ٣٤

وقال في سورة فصّلت: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ فصلت: ٦ فالإسلام الذي في آية سورة الحج هو الاستقامة على الطّاعة كما بيّنته الآية في سورة فصّلت.

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ ﴾ الفتح: ١٦ فجعل الله القتال مستمرًا حتى تتحقق غاية واحدة وهي الإسلام، وقد بيّن الله معنى الإسلام الذي إذا تحقّق توقّف القتال، وذلك في قوله: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٩٣ ومعنى الفتنة في هذه الآية: الشرك بإجماع الصّحابة ومعنى الدّين في هذه الآية: الطّاعة، فيكون معنى الآية أن قتال المشركين لا يتوقف إلا إذا تركوا الشرك في عبادة الله وتركوا الشرك في طاعة الله، فلا معبود إلا الله ولا مُطاع إلا الله.

وقال تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ ﴾ الأنفال: ٣٨-٣٩ ففي هاتين الآيتين الإخبار بأنّ الكفّار إن ينتهوا عن كفرهم يغفر لهم ما سلف من الكفر وإن يُصرّوا على كفرهم فقد مضت فيهم سنة الله بعقوبتهم، ومن عقوبتهم قتالهم على الكفر وقد أمر الله به المؤمنين وبيّن لهم حقيقة الكفر الذي يقاتلون الكفار

عليه وهو أن تكون بعض العبادة لغير الله أو تكون بعض الطاعة لغير الله، فلا إسلام حتى تكون العبادة كلها لله وحتى تكون الطاعة كلها لله.

وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ التوبة: ٥ ومعنى ﴿ فَإِن تَابُوا۟ ﴾ أي: تركوا الشرك، ومعنى ﴿ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾: الانقياد والطّاعة لله، وجُعلت الصلاة والزّكاة دليلًا على الانقياد للطاعة لأنهما شعيرتان ظاهرتان يمكن معرفة الملتزم بهما من غيره بخلاف بقيّة الفرائض فليست مثلهما في الظّهور، وفي هذه الآية الأمر بقتال المشركين حتّى يتركوا الشرك وينقادون للطّاعة، فمن لم يترك الشرك ولم ينقد للطّاعة فلا يُخلّى سبيله؛ لأنّه ليس بمسلم.

وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْءَايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ التوبة: ١١ والدّين عند الله هو الإسلام، فلا يكون أخًا لنا في الإسلام من لم يترك الشّرك وينقاد لطاعة الله وحده، وقد أخبر الله تعالى أن كفر الجاهليّة يرجع إلى أصلين هما:-

١- عبادة غير الله.

٢- التّحليل والتّحريم من دون الله وهو شرك الطّاعة، قال تعالى في سورة النّحل: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ ﴾ النحل: ٣٥-٣٦

وقال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ ﴾ الأنعام: ١٤٨

وأخبر الله تعالى أيضًا عن كفر أهل الكتاب أنّه يرجع إلى أصلين وهما:-
١- عبادة غير الله.
٢- طاعة غير الله في التّحليل والتّحريم والتّشريع، وذلك في سورة التّوبة بقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ التوبة: ٣١ فقد دلّت هذه الآية على أن أهل الكتاب رغم انتسابهم إلى دين الأنبياء وملّة إبراهيم إلا أنّهم قد وقعوا في الشّرك من وجهين:-
الوجه الأول: التّولي عن طاعة الله واتّخاذ الأحبار والرّهبان مشرّعين من دون الله.
الوجه الثّاني: عبادة عيسى عليه السلام.
والحاصل أن القرآن قطعيّ الدّلالة على أن أصل الإسلام عبادة الله وحده والانقياد لطاعة الله وحده، فلا يكون مسلمًا من لم يأتِ بهذين الأصلين، وسوف نذكر أدلّة أخرى تدلّ على أن عبادة غير الله كفر وشرك، وأدلّة أخرى تدلّ على أن التّولي عن طاعة الله كفر وشرك.

فصل:
في ذكر الآيات الدّالة على أنّ عبادة غير الله شركٌ وكفرٌ

قال الله تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا ﴾ الكهف: ١١٠ وهذا صريحٌ في أنّ صرف شيء من العبادة لغير الله يسمّى شركًا وقال تعالى: ﴿ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ النساء: ٣٦ أي: لا تُشركوا به شيئًا في العبادة، وهذا صريحٌ في أنّ عبادة غير الله شرك، قال تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ الزمر: ٦٤ وهذا صريحُ في أن من عبد غير الله يكون مشركًا وخاسرًا في الآخرة، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ

ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ المائدة: ٧٢ وهذا صريح في أن من عبد غير الله كان مشركًا من أهل الخلود في النّار.

وقال تعالى في صفة المؤمنين: ﴿ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾ النور: ٥٥ وهذا صريحٌ في أنّ صرف شيء من العبادة لغير الله شرك، وقال تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ يونس: ١٨ وهذا صريحٌ في أنّ من عبد غير الله بحجّة الشّفاعة من دون اعتقاد أنّهم مدبّرون للكون مع الله أنّه يكون مشركًا، ونظير هذه الآية قول الله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ﴾ الزمر: ٣ وهذه الآية صريحة في أن من عبد غير الله بحجّة الشّفاعة أنّه اتّخذ من دون الله آلهة ولم يُخلص الدّين لله وأن حكمه عند الله كافر.

وقد حكى الله في آياتٍ متعددة أنّ المشركين كانوا يُقرّون بأن الذي يدبّر الكون هو الله وحده وأنّهم إنّما أشركوا مع الله في عبادته لا في ربوبيّته وأنّ سبب شركهم هو دعوى الشّفاعة، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣١ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴾ يونس: ٣١-٣٢ وقوله تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴾ المؤمنون: ٨٤-٨٩

وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ لقمان: ٢٥ وقال تعالى حكاية عن الرّجل الصّالح: ﴿ وَمَا لِيَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ يس: ٢٢-٢٣ فأخبر أنّ الضّلال المبين هو عبادة غير الله بحجّة الشّفاعة، وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ الأنعام: ٥٦ فهذه الآية صريحة في أنّ من عبد غير الله لم يُسلم لربّ العالمين.

وقال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ الكافرون: ١-٦ ففي هذه السّورة أمر الله نبيّه أن يسمّي من عبد غير الله كافرًا وأمره أن ينادي ويجهر بتكفيرهم وأن يبرأ من عبادة غير الله ونحن نشهد بأنّ من اعتقد أنّ الله وحده هو الخالق الرّازق المدبّر المالك ثم صرف شيئًا من العبادة لغير الله أنّه كافر بالإسلام مشرك بالله ونقطع بهذه الشّهادة ونُكفّر من لم يشهد بها.

فصل:

في أنّ الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله عبادة للمستغاث به وأنّ فاعلها مشرك

اعلم أن سؤال غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله عبادة للمسؤول لأنّ لازم هذا الفعل أن يعتقد في المسؤول المدعو من دون الله نوعًا من التّدبير الغيبي للكون وهذا من صفات الرّبوبية المختصّة بالله تعالى، سواء اعتقد الدّاعي أنّ المدعو يستقل عن الله بالتّأثير في الكون أو يعتقد أن المدعو شفيع عند الله لا يستقل بالتّأثير في الكون، وقد ورد في القرآن الأمر بدعاء الله وحده والنّهي عن دعاء من سواه في مواضع كثيرة، ومعنى الدعاء في هذه الآيات: السؤال والطلب المستلزم

لـلتعبّد فـمن ذلـك قـول الله تـعالـى: ﴿ لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴾ الرعد: ١٤ فالمراد بالدّعاء هنا دعاء المسألة والطلب بدليل قرينة ذِكْر بسط الكف وهي لا تكون إلا في دعاء المسألة والطّلب، وقد جعل الله تعالى سؤاله هو الحق وسؤال غيره هو الباطل الذي لا ينفع وسمّى فاعله كافرًا.

وقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ﴾ فاطر: ١٣-١٤ فالمراد بالدّعاء هنا دعاء المسألة والطلب بقرينة ذكر السماع والإجابة ولا يكونان إلا في النّداء والطّلب وقد جعل الله هذا النداء والطّلب شركًا.

وقول الله تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ إِذَا هُمۡ يُشۡرِكُونَ ٦٥ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ وَلِيَتَمَتَّعُواْۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴾ العنكبوت: ٦٥-٦٦ والمراد بالدّعاء في هذه الآية المسألة والطّلب بدليل ذِكْر حالة الإضطرار وحالة الإضطرار يكون الغالب على الإنسان سؤال الله والطلب منه كما قال تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ النمل: ٦٢ فقد جعل الله هذه المسألة وهذا الطّلب من الدّين الذي يدخله الإخلاص والشّرك، فحكى عن المشركين أنّهم في حال الإضطرار يُخلصون الطّلب والمسألة لله وفي حال الرّخاء يُشركون مع الله في المسألة والطّلب، وهذا صريحٌ في أنّ دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شركٌ وكفرٌ، ولهذه الآية نظائر منها قول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلۡبَحۡرِ ضَلَّ مَن تَدۡعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمۡ إِلَى ٱلۡبَرِّ أَعۡرَضۡتُمۡۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ الإسراء: ٦٧

وقول الله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٥٤ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴾ النحل: ٥٣-٥٥ وقول الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ

عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ٤٠-٤١ ومن الأدلّة على أن دعاء غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله عبادة للمدعو: قول الله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ العنكبوت: ١٧ فأخبر تعالى أن ابتغاء الرّزق من عند غير الله عبادة للمدعو وأن ابتغاء الرّزق من الله عبادة الله، وهذا صريحٌ في أنّ من سأل الرّزق من غير الله فقد عبده من دون الله، ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ يونس: ١٠٦-١٠٧ وهذه الآية صريحة في أنّ من الظلم الأكبر سؤال غير الله بجلب المنافع ودفع المضارّ، ويقول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ الإسراء: ٥٦-٥٧ وهذا صريحٌ في أنّ غير الله لا يملك كشف الضّر ولا تحويله وأنّ من سألهم ذلك فقد اتّخذهم معبودين من دون الله.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ الأحقاف: ٥-٦ وهذه الآية صريحة في أنّ من سأل غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله أنّ المدعو لا يستجيب له وأنّ هذا الدّعاء عبادة للمدعو.

والآيات في هذا المعنى أكثر ممّا ذكرنا، ولكن يجب أن يُعلم أنّ سؤال غير الله لا يكون عبادة للمدعو إلا إذا كان يعتقد فيه شيئًا من التّدبير الغيبي للكون، وأمّا إذا كان سؤال المخلوق ليس معه من هذا الاعتقاد شيء فإنّه بالضرورة لن يسأله

المخلوق جلب المنافع ودفع المضارّ، ومن هذا يُعلم أن من سأل الميّت الدّعاء ولو بلفظ الشّفاعة فإنّه لا يكون عابدًا له لأنّه لا يلزم من فعله اعتقاد شيء من التّدبير الغيبي للكون في الميّت، وليس في القرآن آية واحدة تدلّ على أن هذا الفعل شرك، بل آيات القرآن التي فيها النّهي عن دعاء غير الله مقيّدة بدعاء المخلوق في جلب المنافع ودفع المضارّ وهذا نوعٌ مغايرٌ من كل وجه لطلب الدّعاء من الميّت.

فصل:

في أن التّولي عن الانقياد لطاعة الله وحده كفر وشرك ولو كان المتولّي مصدّقا بالإسلام

اعلم أنّ الله سبحانه وتعالى قد ذكر في القرآن لفظ التولّي بمعنى الكفر في سبعٍ وأربعين موضعًا، بعضها يعم كفر التكذيب والتولّي عن الانقياد في العمل، وبعضها خاصّ بالتولّي عن الانقياد للطّاعة مع وجود التّصديق، قال الله تعالى: ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ آل عمران: ٢٠ فسمّى الله من لم يُسلم متولّيًا وقال تعالى: ﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ البقرة: ١٣٧ فسمّى الله من لم يؤمن متولّيًا.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ آل عمران:٣٢ فسمّى الله المتولّي عن طاعة الله ورسوله ﷺ كافرًا.

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَـٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ القيامة: ٣١-٣٢ فغاير بين التّكذيب والتّولّي وهذا صريحٌ في أنّ التولّي يكون بترك الانقياد للعمل والآية أيضًا دليلٌ على أنّ الصّلاة هي الحد الأدنى من الطّاعة فمن تركها كان متولّيًا عن طاعة الله.

وقال تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ الليل: ١٤-١٦ فغاير بين التّكذيب والتولّي، فيكون المراد بالتولّي ترك الانقياد للأمر ويقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ النور: ٤٧ وهؤلاء قوم أظهروا الإيمان وأعلنوا الالتزام بالطّاعة ومع ذلك نفى الله عنهم الإيمان بسبب تولّيهم عن الطّاعة.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ المائدة: ١٠ ولهذه الآية نظائر في القرآن فيها المغايرة بين الكفر والتّكذيب وهذا صريحٌ في أنّ الكفر لا ينحصر في التّكذيب بل هو أعم منه وقد سمّى الله هذا الكفر المغاير للتكذيب تولّيا فقال: ﴿ لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ الليل: ١٥-١٦

وسمّاه أيضًا استكبارًا فقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ الأعراف: ٤٠-٤١

وسمّاه أيضًا جحودًا فقال: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ ﴾ النمل: ١٤

وقال: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ الأنعام: ٣٣

وسمّاه أيضًا عتوًّا فقال سبحانه: ﴿ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾ الأعراف: ١٦٦

وسمّاه أيضًا كراهية فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ محمد: ٩

وسمّاه أيضًا مشاقّة ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ النساء: ١١٥

وسمّاه أيضًا إباءً فقال: ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٣٤ فكلّ من عرف الإسلام وصدّق به ثمّ أبى واستكبر عن طاعة الله وكره ما أنزل الله وشاقّ

أحكام الله فقد تولّى عن طاعة الله وكُفرُه من جنس كُفر إبليس ومن توقّف في تكفيره فقد جحد المعلوم من الدّين بالضّرورة وكان بذلك كافرًا مرتدًّا.

فصل:
في أنّ من كفر التّولّي عن طاعة الله الاحتكام إلى الشّرائع المبدّلة مع العلم بالتبديل

اعلم أنّ من اتبع الشّرائع المبدّلة بالحكم بها أو بالتحاكم إليها فإنّه يكون بذلك متولّيًا عن طاعة الله فيكون بذلك كافرًا ومشركًا، قال الله تعالى: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ المائدة: ٤٣

فجعل الله سبحانه وتعالى استبدال اليهود بحكم الله في رجم الزّاني إلى تسويد وجه الزّاني وتجبيبه تولّيًا عن حكم الله استحقّوا به نفي الإيمان.

وقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ النور: ٤٧-٥٠. فجعل الله عزّ وجل إعراضهم عن حكم الله واحتكامهم إلى غير شريعة الله تولّيا عن طاعة الله استحقّوا به نفي الإيمان.

وقال الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ المائدة: ٤٤

فحَكَمَ الله بالكفر على من بدّل حكم الله برجم الزّاني إلى التّسويد والتجبية، وهذا صريحٌ في تكفير كل من بدّل أحكام الله.

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ

عَنكَ صُدُودًا ﴾ النساء: ٦٠-٦١ فسمّى الله عزّ وجل الحاكم المبدّل لأحكام الله طاغوتًا ونفى عمّن أراد الاحتكام إلى الطّاغوت الإيمان بالله وجعله تاركًا للكفر بالطّاغوت ومن لم يكفر بالطّاغوت فقد آمن به، ويقول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ الأنعام: ١٢١ فمن أطاع المبدّلين لشرع الله في تحليل الميتة بعد أن حرّمها الله فهو مشرك بالله كما سمّاه الله بذلك.

وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ ﴾ الشورى: ٢١ فسمّى الله المبدّلين لشرع الله شركاء وجعل المطيعين لهم متّخذين شركاء مع الله.

وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ الأنعام: ١٣٧ فسمّى الله المفترين على الله الكذب المبدّلين لشرع الله بإباحة قتل الأولاد شركاء وسمّى المطيعين لهم في تبديلهم للدّين مشركين، وقال تعالى: ﴿ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ الكهف: ٢٦ فأخبر الله أنه لا يجعل أحدًا من الخلق حاكمًا معه وأن ذلك شركٌ به، وقد قرأ ابن عامر: ﴿ وَلَا تُشْرِكْ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ فيكون المعنى النّهي عن أن يُجعل مع الله شريكًا في الحكم وقال تعالى: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ يوسف: ٤٠ وهذا صريحٌ في وجوب إفراد الله بالحكم، وقال تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ﴾ النساء: ٥٩ فجعل إفراد الله بالحكم شرطًا في صحّة الإيمان، وقال تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾ النساء: ٦٥ فنفى الله الإيمان عمّن لم يحتكم إلى الرّسول في كلّ شيء والاحتكام إلى الرّسول احتكام إلى الله لأنّ طاعة الرّسول طاعةٌ لله، قال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ ﴾ النساء: ٨٠

وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ التوبة: ٣١ وقد أجمع المفسّرون أنّ معنى الآية طاعة الأحبار والرّهبان في تبديل حكم الله، فمن احتكم إلى الطّواغيت المبدّلين لحكم الله فيما خالفوا فيه شرع الله فقد اتّخذهم أربابًا من دون الله.

فصل:

في أنّ الطّائفة ذات الشّوكة إذا امتنعوا من الانقياد إلى حكم من أحكام الله المجُمع عليها وقاتلوا على ذلك فإنّهم متولّون عن طاعة الله وجاحدون لحكم الله ولو كانوا مصدّقين به

قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ ﴾ الأنفال: ٣٩ ومعنى الدين: الطّاعة، والطائفة الممتنعة عن حكم من أحكام الله ليست طاعتهم كلّها لله.

ويقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴾ البقرة: ٢٧٨-٢٧٩ وسبب نزول هذه الآية أن قبيلة ثقيف لم تترك الرّبا بعد إسلامهم فآذنهم الله بالحرب إن لم ينقادوا لحكم الله بتحريم الرّبا ولا تكون الحرب من الله ورسوله إلا على الكافرين.

وقال الله تعالى عن أصحاب السّبت: ﴿ فَلَمَّا عَتَوۡاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنۡهُ قُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ الأعراف: ١٦٦ وأصحاب السّبت هم أهل قرية من بني إسرائيل ممن آمن بموسى عليه السلام والتزموا حكم التّوراة، فلمّا لم ينقادوا لحكم الله بتحريم الصّيد يوم السّبت واحتالوا عليه بوضع الشِّبَاك في يوم الجمعة وأخذ السّمك في يوم الأحد جعلهم الله بذلك من أهل العتو والمعاندة، والعتو والمعاندة كفر ضروري ولذلك عاقبهم الله عقوبة الكفّار بمسخهم قردة وهذا غاية الهوان، ولم يجعل الله العذاب

المهين إلا للكافرين قال تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ النساء: ٣٧ وقد عذّب الله تعالى قوم لوط أشدّ العذاب ولم يذكر لهم إلا ذنبًا واحدًا وهو فاحشة اللواط، والاقتصار على ذكر هذا الذّنب وحده دليل على أنه هو موجب الكفر والعذاب، ولم يكن فعلهم لفاحشة اللواط مجرد ذنب بل زادوا عليه المعاندة لحكم الله فإنه لما نهاهم لوط عليه السلام عن فعل الفاحشة سخروا منه قال تعالى: ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ النمل: ٥٦

ويقول الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩ ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية ثلاثة أسباب أوجبت كفر أهل الكتاب وقتالهم، وهذه الأسباب الثلاثة متلازمة، فكلّ من لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يحرم ما حرم الله ورسوله ﷺ ولم يدن بدين الحقّ ومن لم يحرّم ما حرّم الله ورسوله ﷺ فلم يأتِ بالإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر ولم يدن بدين الحق، فكلّ طائفة لها شوكة ومنعة لم تلتزم بحكم من أحكام الله يصدُق عليها أنّها لم تحرّم ما حرّم الله ورسوله ﷺ ولم تدن بدين الحق فإذا كانو كذلك صحّ نفي الإيمان عنهم لأنهم لم يأتوا بلازمه.

فصل:

في أن من قاتل مع الكفّار ضدّ المسلمين أو أعانهم على قتال المسلمين فقد تولّى عن طاعة الله

قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ الحشر: ١١ فهؤلاء وعدوا الكفّار بالنّصر على المسلمين وكان وعدهم كاذبًا ومع ذلك حكم الله عليهم بالكفر وجعلهم إخوانًا للكفّار، فكيف بمن

أعان الكفّار على قتال المسلمين بل وكيف بمن باشر القتال مع الكفّار ضد المسلمين، هل يشكّ في كفره إلا كافرٌ مثله؟! وهذه الآية نزلت في عبد الله بن أُبيّ وغيره من المنافقين الذين كانوا حلفاء لليهود فوعدوهم بالوفاء بما يقتضيه الحلف والولاء وهو النّصرة، وهذا السّبب في نزول سورة الحشر هو عين سبب نزول آية سورة المائدة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ المائدة: ٥١-٥٢ فالمراد بالأولياء الحلفاء المتناصرون، فمن حالف قومًا فهو وليّهم وهو منهم، وفي صحيح ابن حبّان أنّ النّبي ﷺ قال: "حليف القوم منهم" والآية صريحة بتكفير كل من ناصر الكفّار على المسلمين وفي معناها جميع الآيات الواردة في القرآن بالنّهي عن موالاة الكفّار وتولّيهم، فإنّها في جميع المواضع معناها النّصرة، فمن ذلك: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ ﴾ آل عمران: ٢٨ وقوله تعالى: ﴿ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُواْ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَـٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾ المائدة: ٨٠-٨١ وقوله تعالى: ﴿ بَشِّرِ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٣٨-١٣٩

وقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ النساء: ١٤٤-١٤٥ ويقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ

كَانَ ضَعِيفًا ﴾ النساء: ٧٦ فكلّ من قاتل مع الطّاغوت ضدّ أهل الإيمان فهو كافر من أولياء الشّيطان. ويقول الله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ﴾ الفرقان ٥٥ فكل من ظاهر على الله فهو كافر، ومن قاتل مع الكفّار ضدّ المسلمين فقد ظاهر على الله.

ويقول الله تعالى: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ النساء

نزلت هذه الآيات في أقوام أسلموا ولم يهاجروا إلى المدينة وكانوا يخرجون مع قومهم المشركين في قتال المسلمين يكثّرون سواد المشركين ولا يباشرون قتال المسلمين فنزلت هذه الآيات بتكفيرهم ووجوب قتالهم وأنّه لا يُترك قتالهم إلا إذا تركوا الخروج مع قومهم المشركين في قتال المسلمين، فتأمّل أنّ الله سمّاهم منافقين وهذا صريحٌ في أنّهم ينتسبون إلى الإسلام وليسوا كفّارًا أصليين، ثمّ تأمّل أنّ الله سبحانه وتعالى أمر المسلمين بالكف عن قتالهم إذا كفّوا عن قتال المسلمين وهذا صريحٌ في أن سبب تكفيرهم وقتالهم هو قتالهم للمسلمين مع المشركين لا أنّهم كفار أصليون ولو كانوا كفّارًا أصليّين لما جاز الكف عن قتالهم حتّى يُسلموا أو يُعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ولا يخفى أن المرتدّ الذي يقرّ بالشّهادتين يرجع إلى الإسلام إذا تاب من النّاقض الذي تلبس به، ثم تأمل قول الله عنهم: ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ ﴾ كيف حكم الله عليهم

بالكفر مع انتسابهم إلى الإسلام، وتأمّل أيضًا قول الله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ﴾ كيف أنّ الله تعالى أمر بقتلهم قتل الاستئصال وهذا النّوع من القتل لا يكون إلا للمشركين إذ المسلم لو قُوتل لبغيه وعدوانه فلا يُقاتل إلا بمقدار ما يُدفع به بغيُه ولا يُزاد على ذلك، ثم تأمّل قول الله تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ ومعنى السلطان الحجّة فجعل الله سبحانه وتعالى تكفير من قاتل المسلمين مع المشركين وقتالَهم من أبين الحقّ وأظهر الأحكام.

ويقول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة: ٩٧-٩٨ فجعل الله سبحانه وتعالى عدواة واحد من ملائكته وهو جبريل عداوة لله ولجميع الملائكة والرّسل وجعل فاعلها كافرًا، فمن قاتل مع الكفّار ضد المسلمين فقد شاركهم في معاداة الدّين، ومن عادى الدّين فقد عادى الله وملائكته ورسله وكان من الكافرين.

فصل:

في أنّ من كفر التّولّي الاستهزاء بالله تعالى أو برسله أو بكتبه أو بشيء من الدّين

قال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ التوبة ٦٥-٦٦ وهذا صريحٌ في أن المستهزيء بشيء من الدّين كافرٌ ولو كان هازلًا أو مازحًا لا يقصد الكفر.

ويـقول الله تـعالـى: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدۡوَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرۡجِعُهُمۡ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ الأنـعام: ١٠٨ وهذه الآية صريحة في أنّ سب الله أغلظ كفرًا من الشّرك في عبادة الله ولأجل هذا نهى الله المسلمين عن سبّ آلهة المشركين إذا كان ذلك يؤدي إلى سبّ الله، وإلّا لم يكن للنّهي عن سب آلهتهم فائدة. ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٥٧ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ بِغَيۡرِ مَا ٱكۡتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحۡتَمَلُواْ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴾ الأحزاب ٥٧-٥٨ هـاتـان الآيـتان تـدلّان على أنّ سبّ الله ورسوله كفرٌ، وذلك من ثلاثة أوجه:-

الوجه الأول: الوعيد باللّعن في الدّنيا والآخرة وهذا لا يكون إلا في حقّ الكافر.

الوجه الثّاني: الوعيد بالعذاب المهين، والعذاب المهين لا يكون إلا للكفّار؛ لأن عذاب المؤمن مقصوده تطهيره من الذّنوب لا إهانته خلافًا للكافر فإن المقصود من عذابه إهانته لا تطهيره وتزكيته.

الوجه الثّالث: أن الله غاير في الوعيد بين أذى الله ورسوله وبين أذى المؤمنين، فجعل في الأوّل اللّعن في الدّنيا والآخرة والعذاب المهين، وجعل في الثّاني البهتان والإثم المبين، وهذا دليل على أن الأول كفر والثاني ذنب دون الكفر، وقد ذكر الله عزّ وجلّ الاستهزاء في القرآن في إحدى وثلاثين آية وجعله من أفعال الكفّار، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ الروم: ١٠

وقوله تعالى: ﴿ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾ يس: ٣٠

وقـال تـعالـى: ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ النساء: ١٤٠

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴾ المائدة: ٥٨ وقال تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴾ الكهف: ٥٦ وقد ذكر الله السّخرية في القرآن في تسع آيات وجعلها من أفعال الكفّار. فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ الأنعام: ١٠ وقول الله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ البقرة: ٢١٢ وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ التوبة: ٧٩

فصل:
في أن ترك الصلاة من كفر التّولّي عن طاعة الله

اعلم أن أقل ما يكون به الإنسان طائعًا لله هو فعل الصّلاة، فمن تركها فقد تولّى عن طاعة الله وكان بذلك كافرًا.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ القيامة: ٣١-٣١ فجعل تارك الصلاة متولّيا عن طاعة الله، وقال الله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ الروم: ٣١ فجعل إقامة الصلاة مانعًا من الوقوع في الشّرك.

ويقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾

وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۞ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي جَنَّـٰتٖ مُّكۡرَمُونَ ﴾ المعارج: ١٩-٣٤ فأخبر الله عزّ وجلّ عن كفر جنس الإنسان واستثنى منهم المؤمنين، وعبّر عن المؤمنين بلفظ المصلّين، وهذا من أصرح الأدلّة على أنّه لا يكون إيمان بدون صلاة.

وقد سمّى الله عزّ وجلّ الصّلاة إيمانًا وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمۡۚ ﴾ البقرة: ١٤٣ فقد أجمع المفسرون على أنّ معنى الإيمان هنا: الصّلاة، فمنطوق الآية يدلّ على أن من صلّى فقد أتى بالإيمان الذي لا يضيع الله ثواب فاعله ومفهوم المخالفة يدلّ على أن من لم يصلّ لم يأتِ بالإيمان الذي لا يضيع الله ثواب فاعله وتسمية الله عزّ وجلّ في هذه الآية إيمانًا دليل على أنّ الصلاة هي تفسير الإيمان في قول الله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَـٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَـٰتِ وَٱلۡقَـٰنِتِينَ وَٱلۡقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَـٰشِعِينَ وَٱلۡخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلۡحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّـٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّـٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ الأحزاب: ٣٥ فقد ذكر الله في هذه الآيات صفات المؤمنين، وفي جميع آيات القرآن التي يذكر الله فيها صفات المؤمنين يذكر في أولّها الصلاة، فلا يُمكن أن يكون الله عزّ وجلّ قد ذكر في صفات المؤمنين الصدقة والصّيام ولا يذكر الصّلاة وهي أعظم فرائض الإسلام، فهذا يدلّ على أن معنى الإيمان في هذه الآية هو الصّلاة، فلا يكون إيمان إلا بصلاة.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ البيّنة: ٥ فجعل الله عزّ وجلّ الدين القيم إخلاص العبادة لله وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، وقرن بين إخلاص العبادة وبين إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة، فدلّ على أنّ إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من أصل الدين القيم فمن لم يأتِ بها لم يأتِ بالدّين القيّم.

ويقول الله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ ﴾ التّوبة: ٥ فعلق عصمة الدم بالتّوبة من الشرك وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة فدلّ على أن من

لم يقم الصّلاة ولم يؤت الزكاة فلا يُعصم دمه. ويقول الله تعالى: ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ ﴾ التّوبة: ١١ فمن لم يصلّ ولم يزكّ فليس أخًا لنا في الدّين، ويقول الله تعالى ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ البقرة: ١-٥ فذكر الله في هذه الآية ستة أصول للإيمان: الإيمان بالله وهو الإيمان بالغيب، والإيمان بالوحي، والإيمان بالكتب والرّسل، والإيمان باليوم الآخر، وإقامة الصّلاة، وإيتاء الزّكاة، فهذه الأصول السّتّة سياقها واحد، ورتّب الله عليها حصول الهداية في الدّنيا والفلاح في الآخرة، فلا يجوز إخراج شيء منها عن كونه من أصل الدّين الذي يكون تاركه كافرًا، ولا حجّة لمن أخرج منها إقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة وقد تكرّر في القرآن في مواضع متعدّدة اقتران الصّلاة والزّكاة بالتّوحيد والإيمان، ولم يثبت في موضع واحد من القرآن إخراج إقام الصلاة وإيتاء الزكاة من أصل الدّين، ودلالة العموم ودلالة الظّاهر إذا تكرّرت في القرآن ولم يرد في القرآن تخصيص العموم أو تأويل الظّاهر كان دليلًا على أنّ الظّاهر مقصودٌ من الشارع جلّ جلاله، ويقول الله تعالى: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ۝٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ۝٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ المدّثر: ٣٨-٤٧ فذكر الله في هذه الآية أسباب استحقاق أهل النّار الخلود فيها، وكل سبب يكفي بمفرده للخلود في النّار، وهي أربعة أسباب: ترك الصلاة وترك الزكاة والخوض في آيات الله بالباطل والتكذيب بيوم الدّين، فكما أنّ من صلّى وزكّى وكذّب بيوم الدّين كان كافرًا من أهل النّار، فكذلك من لم يصلّ ولم يزكّ كان من أهل النّار ولو صدّق بيوم الدّين، ومن فرّق بين هذه الأفعال الأربعة فقد خالف ظاهر القرآن من دون دليل صحيح.

فصل:
في أنّ الجاهل باليوم الآخر لا يكون مسلمًا

اعلم بأن الإيمان باليوم الآخر ملازم للإيمان بالله، فالجاهل باليوم الآخر جاهل بالله، والجاهل ليس بمسلم.

قال الله تعالى: ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾ النّحل: ٢٢ فجعل الله سبحانه وتعالى من لم يؤمن بالآخرة منكر للتوحيد ومستكبر عن طاعة الله.

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ الزمر: ٤٥ فجعل الله من لم يؤمن بالآخرة مشمئز عن توحيد الله مستبشر بالشّرك.

وقال تعالى: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴾ المؤمنون: ٤٧ فجعل كل من لم يؤمن بالآخرة ناكبًا عن صراط الله.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴾ النمل: ٤-٥ فجعل كل من لم يؤمن بالآخرة ضالًا في الدّنيا خاسرًا في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ سبأ: ٨ فجعل كل من لم يؤمن بالآخرة ضالًا معذّبًا.

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ سبأ: ٢٠-٢١ فجعل الشّاك في اليوم الآخر من حزب الشيطان الذين صدّق عليهم إبليس ظنّه، ومن المعلوم أن الشّاك ليس معاندًا بل جاهلًا، فإن الجاحد والمعاند هو الذي استيقن الحق ثمّ جحده.

وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ النمل: ١٤ وأما الشّاك فلم يعلم الحقّ، فثبت أن الشّاك هو الجاهل.

ويقول الله تعالى حاكيًا عن الجن: ﴿ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴾ الجن: ٧ فجعلهم الله كفّارًا بمجرّد الظّن بعدم البعث، والظّان جاهل ليس بعالم.

وقال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ الأنعام: ٩٢ فأخبر أنّه لا يحصل الإيمان بالكتاب إلا ممن آمن باليوم الآخر، وقد قرن الله سبحانه بين الإيمان بالله واليوم الآخر في سبعة وعشرين موضعًا من القرآن، وهذا من أبلغ الأدلّة على التّلازم بين الإيمان بالله واليوم الآخر، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ ﴾ البقرة: ١٢٦ وقوله تعالى: ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِۚ ﴾ النساء: ٥٩

وقد قرن الله سبحانه في الكفر بين الكفر بالله واليوم الآخر في مواضع كثيرة من القرآن، وهذا دليلُ على التّلازم بينهما في الكفر، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ التوبة: ٢٩ وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ الأنعام: ١٥٠ وقوله تعالى: ﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْأَخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ ﴾ إبراهيم: ٢-٣ وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٤٧ وقوله عن يوسف عليه السلام: ﴿ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴾ يوسف: ٣٧

وسمّى الله تعالى منكر البعث كافرًا فقال: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴾ التغابن: ٧ وقال: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴾ النحل: ٣٨-٣٩.

فصل:

في أنّ الجاهل بوجوب إفراد الله بالعبادة أو الجاهل برسالة محمد ﷺ لا يكون مسلمًا

قال الله تعالى: ﴿ قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ﴾ الزمر: ٦٤ فسمّى المشركين جاهلين، وقال تعالى: ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴾ الأعراف: ١٣٨ فبيّن أنّ الحامل لهم على طلب الشّرك هو الجهل، وقد أخبر في آيات أخرى من القرآن بأن سبب الشرك وعلّته هو الجهل، فلو كان الجهل مانعًا من الشّرك لما وُجد الشّرك أصلًا، ويقول الله تعالى: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡلَمُونَ ﴾ التوبة: ٦ فسمّاهم الله مشركين مع وصفه لهم أنهم لا يعلمون، فدلّ على أن الجهل لا يمنع من الشرك، وقد وصف الله المشركين بأنّهم لا يعلمون في ستة وعشرين آية من القرآن، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ النمل: ٦١ فهذا في الجهل بالألوهيّة. وقال في الجهل بالرّسالة: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ سبأ: ٢٨ وقال في الجهل بالبعث بعد الموت: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ النحل: ٣٨

وقد وصف الله سبحانه وتعالى بأن المشركين لا يعقلون في عشر آيات من القرآن فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ الأنفال: ٢٢-٢٣ وقوله تعالى: ﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ الفرقان: ٤٤ وأخبر الله عن أصحاب النّار بقوله: ﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ الملك: ١٠ وأخبر الله تعالى عن المشركين أنّهم يحسبون أنفسهم مهتدين، قال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ الأعراف: ٣٠ وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هَلۡ نُنَبِّئُكُم بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ﴿١٠٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَلَا نُقِيمُ لَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَزۡنٗا ﴾ الكهف: ١٠٣-١٠٥

وأخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه لا يصح الإيمان بالله بدون الإيمان بالرّسل، فمن جهل الرّسالة لم يؤمن بها ومن لم يؤمن بها لم يؤمن بالله، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾ النساء: ١٥٠-١٥١

وقد ورد في القرآن في آيات كثيرة جدًا الجمع بين الله والرّسول في معاني كثيرة، فمن ذلك: الجمع بينهما في الإيمان، مثاله: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ﴾ آل عمران:١٧٩ فمن جهل الرّسول لم يؤمن به ومن لم يؤمن به لم يؤمن بالله. ومن ذلك أيضًا: الجمع بينهما في النهي عن الكفر، مثاله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ﴾ النساء: ١٥٠ فمن كفر بالرّسول فقد كفر بالله.

ومن ذلك أيضًا: الجمع بينهما في الطّاعة مثاله: ﴿ قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ آل عمران: ٣٢ فمن جهل بالرّسول لم يطعه ومن لم يطعه لم يطع الله.

ومن ذلك أيضًا الجمع بينهما في النّهي عن المعصية: قال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ النساء: ١٤ ومن جهل الرّسول فقد عصاه ومن عصاه فقد عصى الله.

ومن ذلك أيضًا: الجمع بينهما في الاحتكام وردّ النّزاع قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ النساء: ٥٩ فمن جهل الرّسول لم يحتكم إليه ومن لم يحتكم إليه لم يحتكم إلى الله.

ومن ذلك أيضًا: الجمع بينهما في الاستجابة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْۖ ﴾ الأنفال: ٢٤ فمن جهل بالرّسول لم يستجب له ومن لم يستجب له لم يستجب لله.

ومن ذلك أيضًا: الجمع بينهما في الإرضاء قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ التوبة: ٦٢ فمن جهل بالرّسول لم يرضه ومن لم يرضه لم يرض الله.

ومن ذلك أيضًا الجمع بينهما في التّصديق قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ الأحزاب: ٢٢ فمن جهل بالرّسول فلم يصدقه ومن لم يصدقه فلم يصدّق الله.

ومن ذلك أيضًا: الجمع بينهما في النّصح قال تعالى: ﴿ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ ﴾ التوبة: ٩١ فمن جهل بالرّسول لم ينصح له ومن لم ينصح له لم ينصح لله.

ومن ذلك أيضًا: الجمع بينهما في النّصرة قال الله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ﴾ الحديد: ٢٥ فمن جهل بالرّسول ﷺ لم ينصره ومن لم ينصره لم ينصر الله.

فصل:

في أنّ الجاهل بعموم علم الله بكل الأشياء أو الجاهل بعموم قدرة الله على كل الأشياء لم يؤمن بالله ولا يكون مسلمًا ولو انتسب إلى الإسلام

قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴾ الطلاق: ١٢

فجعل الله سبحانه وتعالى المقصود بالخلق والأمر أن يعلم العباد أن الله على كل شيء قدير وأن الله بكل شيء عليم ولازم هذا العلم حصول العبودية لله وحده، ولذلك عبّر الله عن هذه الغاية بلفظ العبادة في قوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات: ٥٦ فمن جهل عموم علم الله بكل شيء أو جهل عموم قدرته على كل شيء لم يكن عابدًا لله وحده.

ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ فصلت: ٢٢ فأخبر الله سبحانه وتعالى عن الكفّار أن سبب هلاكهم وخسارتهم في الآخرة هو ظنّهم أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون وهذا صريحٌ في كفر الجاهل بعموم علم الله بكلّ شيء، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أنه بكل شيء عليهم في عشرات الآيات من القرآن وهو أمر معلوم لا حاجة للتطويل بذكره.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى أيضًا بأنه على كل شيء قدير في عشرات الآيات من القرآن فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ البلد: ٥ فأخبر

الله عن الإنسان الكافر أنه يظن أن الله لا يقدر عليه، وهذا صريح في أن من جهل عموم قدرة الله على كل شيء أنّه كافر.

وأخبر الله سبحانه وتعالى عن المشركين أنهم جهلوا قدرة الله على بعث الموتى، قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يس: ٧٨ - ٨٣

وقال تعالى أيضًا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الأحقاف: ٣٣ وقال أيضًا: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ الإسراء: ٩٩ وقال أيضًا: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾ القيامة: ٣ وهذه الآيات صريحة في أنّ الكفّار جهلوا قدرة الله على البعث فكانوا بذلك كافرين.

وقد قرن الله عزّ وجلّ بين العلم بتوحيده والعلم بأنه على كل شيء قدير فقال: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ الحج: ٦ فمن جهل بأن الله على كل شيء قدير فقد جهل بأن الله هو الحق.

فصل:

في أنّ من آمن بالله ورسوله محمد وباليوم الآخر فهو المسلم، ولا يخرج من الإسلام إذا جهل شيئا من تفاصيل الأخبار والأحكام

يقول الله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ ﴾ البقرة: ٢٨٦-٢٨٧ فجعل الله سبحانه وتعالى رفع المؤاخذة عن الخطأ وهو الجهل بعد الإتيان بأصل الإيمان ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ ﴾ التوبة: ١١٥ وهذا صريح في أنّ من أتى بأصل الهداية وهو الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر ثم جهل بعض الفروع أنّه لا يُحكم عليه بالضّلال المعذّب عليه إلا بعد أن يبلغه بيان الله، ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنۡ أَتَيۡتَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٖ مَّا تَبِعُواْ قِبۡلَتَكَۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٖ قِبۡلَتَهُمۡۚ وَمَا بَعۡضُهُم بِتَابِعٖ قِبۡلَةَ بَعۡضٖۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ البقرة: ١٤٥ فأخبر الله سبحانه وتعالى عن نبيّه ﷺ أنّه لو استقبل في صلاته قبلة أهل الكتاب بعد ما جاءه العلم باستقبال الكعبة أن يكون من الظّالمين -حاشاه من ذلك- ومفهوم المخالفة أنّ من استقبل غير الكعبة قبل أن يجيئه العلم بوجوب استقبالها أنه لا يكون من الظالمين.

ويقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ البقرة: ٢٧٥ فأخبر الله عزّ وجلّ أنّ من أكل الرّبا قبل أن تجيئه الموعظة فمعفوٌ عنه، ومن أكله بعد مجيء الموعظة فمتوعدٌ بالنّار.

فصل:

في أنّ من ترك الشّرك وآمن برسالة محمد ﷺ وآمن باليوم الآخر ثم جهل كفر المشركين وأنّهم أعداء الله وأنّهم أهل النّار أنه لا يكون بذلك كافراً ولا مشركًا

قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ ﴾ التوبة: ١١٣-١١٤ فأخبر الله سبحانه وتعالى عن النّبي ﷺ والمؤمنين أنّهم كانوا يستغفرون للمشركين من قراباتهم ولم يتبيّن لهم حينها أنهم من أصحاب الجحيم، ثمّ أخبر الله عن إبراهيم عليه السلام أنّه كان يستغفر لأبيه وأنّه لم يكن يعلم أنّه عدوٌ لله وأنّه لم يبرأ منه أبيه إلا بعد أن بيّن الله له، وهذا صريحٌ في أنّ الجهل بكفر المشركين لا ينافي أصل الدين.

ومن تدبّر آيات القرآن لم يتردّد في الجزم بأنّ القرآن لم يدلّ بأي نوع من أنواع الأدلّة المعتبرة على أن اعتقاد تكفير المشركين من أصل الدّين الذي إذا جهله الإنسان لم يكن مسلمًا.

فصل:

في أن الهداية حكم قدري سببه الصدق في طلب الهدى، وأن الضلالة حكم قدري سببها الإعراض عن طلب الهدى

قد أخبر الله سبحانه وتعالى أن كل من صدق في طلب الهدى أنّ الله يهديه فقال سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ العنكبوت: ٦٩ وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ محمد: ١٧ وقال: ﴿ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ ﴾ الأنفال: ٢٣ فكلّ من كان في قلبه خيرًا فإن الله يُسمعه الهدى ويهديه إليه.

وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا ﴾ الأنفال: ٢٩ فمن اتقى الله هداه الله إلى التفريق بين الحقّ والباطل، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ ﴾ الحديد: ٢٨ فمن آمن واتّقى جعل الله له نورًا يُبصر به الهدى.

وأخبرنا الله عزّ وجلّ أن من لم يكن في قلبه الصّدق في طلب الهدى أن الله لا يهديه فقال تعالى: ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴾ الأنفال: ٢٢-٢٣ وقال تعالى: ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴾ الأنعام: ١١٠ وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ ﴾ الصف: ٥ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهۡدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ﴾ النّحل: ١٠٤-١٠٥ وقال تعالى: ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ النساء: ١٥٥

وقال: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ ﴾ البقرة: ٦-٧

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴾ يونس: ٩٦-٩٧ والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا تدلّ دلالة قطعيّة على أن جهل أصول الإيمان وقطعيّات القرآن بعد تمكنّه من سماع القرآن وتعلّمه أنّه معرضٌ عن طلب الهدى فضلاله عدلٌ إلهي، بل أخبرنا سبحانه وتعالى أن القرآن سبب في زيادة ضلال المعرضين قال الله: ﴿ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾ البقرة: ٢٦ وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ

شِفَآءٌ وَرَحۡمَةٌ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ الإسراء: ٨٢ وقال تعالى: ﴿ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٌ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ ﴾ فصلت: ٤٤ فمن توّهم أنّه ليس بين أغلب الكفّار وبين هدايتهم إلا معرفة حجّة الله معرفة تامة كاملة فقد جهل سنة الله في خلقه.

فصل:
في أنّ ما بينّه الله في القرآن بيانًا صريحًا فالحجّة به تكون قائمة على من بلغه القرآن ولو كان جاهلاً بما في القرآن

قال الله تعالى: ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنًا لِّكُلِّ شَيۡءٍ ﴾ النّحل: ٨٩ فأخبر عن القرآن أن فيه كل ما يُحتاج إلى بيانه من الدّين، فمن بلغه القرآن فقد بُيّن له.
وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةً وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٍ يُؤۡمِنُونَ ﴾ العنكبوت: ٥١ فأخبر الله عن القرآن بأنّه كافٍ في قيام الحجّة وحصول الذكرى للعباد، وقال تعالى: ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾ الأنعام: ١٩ فأخبر أنّ من بلغه القرآن فقد أنذر وقامت عليه الحجّة، وقال تعالى: ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِۦ ﴾ إبراهيم: ٥٢ فأخبر عن القرآن بأنّه بلاغ للنّاس وأن النّذارة تحصل به.
وقال تعالى: ﴿ بَلَٰغٌۚ فَهَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴾ الأحقاف: ٣٥ فأخبر سبحانه أنّ ما في القرآن بلاغٌ فمن بلغه القرآن ولم ينتفع به فهو من الفاسقين ولو كان جاهلاً
وأخبر الله تعالى أن وظيفة الرّسول هي البلاغ فقال: ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ﴾ الرعد: ٤٠
وبلاغ الرّسول ﷺ هو القرآن، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ المائدة: ٦٧ وقال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلۡوَحۡيِۚ ﴾ الأنبياء: ٤٥

وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ق: ٤٥ فبلاغ الرّسول وإنذاره وتذكيره يحصل بالقرآن، فمن بلغه القرآن فقد بُلّغ وأُنذر وذُكّر.

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ التوبة: ١١٥ وبيان الله هو القرآن فمن بلغه القرآن فقد بيّن الله له، وقد بين سبحانه أنّه بيّن في القرآن الآيات وفصّلها ليحصل بها الاستبيان والهداية وعدم الضّلال.

قال تعالى ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ الأنعام: ٥٥ فآيات القرآن كافيه في بيان سبيل المجرمين.

وقال تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ آل عمران: ١٠٣ فآيات الله كافية في معرفة الهدى.

وقال تعالى: ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ المائدة: ١٧٦ فبيان الله في القرآن كافٍ في العصمة من الضّلال، والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا وجميعها تشهد ببطلان مذهب من اشترط في قيام الحجّة شروطًا زائدة على بلوغ القرآن.

وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد وعلى آله وأصحابه أجمعين.



فهرس المحتويات

صدر للمؤلف:

* خلاصة المأمول من توحيد الله واتّباع الرّسول. (منشور)
* رد الشّارد من الخلف إلى اتّباع المشهور من السّلف. (منشور)
* إجمال أصول الغلاة في التّكفير. (منشور)
* دلائل القرآن على أصول الإيمان. (منشور)
* رسالة في منهجيّة طلب العلم. (منشور)
* حاشية على فصل البدعة من رسالة خلاصة المأمول (منشور)
* رسالة مختصرة في الجماعة. (قريبًا)
* إعلام أهل السنّة والتّوحيد بوجوب مفاصلة أهل البدعة والتنديد.
* تحقيق الوصول إلى توحيد الله واتّباع الرّسول.
* التّحذير من الغلوّ في التّكفير.